الدرس الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد..

هذه المنظومة هي لأبي إسحاق إبراهيم بن مسعود الألبيري الأندلسي، فقيه شاعر، وشعره غالبه وعامته في الزهديات، وواعظٌ بشِعره وعظًا مؤثراً نافعًا للغاية.

وهذه المنظومة كتب فيها رحمه الله وصية حافلة بالمعاني العظيمة ولاسيما في باب الحث علىٰ العلم والحض علىٰ العناية به وبيان فضل ذلك، وأهمية اغتنام الأوقات وعدم إضاعتها.

وحفُلت هذه المنظومة بوصايا عظيمة وتوجيها مُسَدَّدة من هذا العلم الفقيه رحمه الله تعالىٰ.

وكان رجلاً زاهداً ومتواضعًا، ويظهر ذلك فيما نقف عليه من مضامين هذه الأبيات التي كتبها رحمه الله تعالىٰ نصحًا لرجل يقال له: أبو بكر، وقد اشتُهر.. بل كُتب علىٰ بعض طبعات هذه الوصية أو هذه المنظومة أن هذه الوصية لابن له يقال له: أبو بكر، لولده، ولكن هذا ليس بصحيح، ليست هذه الوصية لابن للناظم، وإنما هي لرجل، وأيضًا شاعر كان معاصراً له، وقد يكون أيضًا زامله أو رافقه في الصبا (في مرحلة الصبا).

ثم إنه في وقت ما هجا ــ هذا الذي يقال له أبو بكرــ أبا إسحاق الألبيري، وأخذ يتكلم عليه ويذمه، فكتب له أبو إسحاق هذه الوصية وتجاهل كل ما قاله عنه وأغفله، واشتغل بمناصحته وتذكيره؛ وهذا من فضله ونُبله وجميل خُلقه، ولا كل أحد يحتمل ذلك.

بل إنه قال له: إنك مهما قلت في نقدي وانتقاصي لن تبلغ ما أعرفه من نفسي من تقصير، وهذا ضَمَّنَه أبيات هذه المنظومة، لكنها قطعاً ليست وصية لابن له يقال له أبو بكر- كما هو شائع-، يعني تأمل في البيت السابع والثمانين وما بعده وهو يقول له:

وَلاَ تُنْكِـــرْ فَـــإِنَّ الأَمْـــرَ جِـــدُّ وَلَـــيْسَ كَمَـــا حَسِـــبْتَ وَلاَ ظَنَنْتَـــا

" أَبَـا بَكْـرٍ " كَشَـفْتَ أَقَـلَّ عَيْبِـي وَأَكْثَـــرُهُ وَمُعْظَمُـــهُ سَـــتَرْتَا

فَقُـلْ مَـا شِـئْتَ فِـيَّ مِـنَ الْمَخَـازِي وَضَـــاعِفْهَا فَإِنَّـــكَ قَـــدْ صَـــدَقْتَا

وَمَهْمَـــا عِبْتَنِـــي فَلِفَـــرْطِ عِلْمِـــي .....

أي: لشدة علمي.

.... بِبَاطِنِـــهِ كَأَنَّـــكَ قَـــدْ مَـــدَحْتَا

يعني ما قلتَ كل ما أعرفه عن نفسي من تقصير وتفريط.

ثم استمر يوصيه..

أيضاً تأمل قوله له:

وَكُنْـتَ مَـعَ الصِّـبَا أَهْـدَىٰ سَـبِيلاً فَمَـا لَـكَ بَعْـدَ شَـيْبِكَ قَـدْ نَكَثْتَـا

(وَكُنْتَ مَعَ الصِّبَا أَهْدَىٰ سَبِيلاً) هذا أيضاً.. البيت يُشعر أنه كان يعرفه أو علىٰ معرفة به منذ الصِّبا، ولا يمكن أبداً أن يكون هذا ابناً لأبي إسحاق الألبيري رحمه الله.

إذاً هذه وصية منه لشخص ربما أنه زامله أو رافقه في مرحلة الصِّبا، ثم نال ذلك الشخص الذي يقال له أبو بكر من أبي إسحاق الألبيري، وتكلَّم فيه وعابه، فلم يلتفت لذلك واشتغل بكتابة هذه الوصية الجامعة.

وأُشير إلىٰ أمر أظنه وأحسبه: أن الإخلاص والصدق ثمرته تبقىٰ، وعائدته تستمر فانظر إلىٰ شخصين؛

أحدهما: أخذ يعيب الآخر ويلمزه ويطعن فيه، ويُعدد معائبه في أبيات كتبها، فلم يُعرَف ولم تُعرَف أبياته، لم يُعرَف مَنْ هو، ولم تُعرَف أبياته.

والآخر: تغافل عن ذلك الطعن واللمز والوقيعة واشتغل بالنُّصح ديانةً وتذكيراً وتعليماً ونُصحاً لشخصٍ أقدع في الطعن فيه وعَدِّ المعائب.

وتجرَّد في المنظومة، لم ينظمها ليدافع عن نفسه، ولا يُبَرِّئ ساحة نفسه، وإنما نظمها نُصحاً لذلك الشخص فانظر هذه الثمرة لمثل هذه الطريقة التي تُعدَّ في جلائل أبواب النُّصح ومآثره العِظام، فبقيت نصيحة نافعةمع مر الأجيال وتوالي الأعوام، ويستفيد منها السابق واللاحق؛ فهذا فيما أحسب وأظن من ثمار الإخلاص والصدق.

والمخلص الصادق ليس له اهتمام بنفسه، نبينا عليه الصلاة والسلام كان لا يغضب لنفسه، وإذا انتُهكِت حُرمات الله لا يقوم لغضبه شيء- صلوات الله وسلامه عليه-.

ومما مدح الله به المؤمنين المتقين كظم الغيظ.. ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران].

فالرجل تغافل عن ذلك كله واشتغل بتحرير ونَظْم أبيات رائعة جميلة لطيفة في حث هذا الرجل علىٰ العلم والأخلاق الفاضلة والآداب الرفيعة واغتنام الأوقات، ووعظه وعظاً مؤثراً ونافعاً للغاية.

والمرجو أن يكون ذاك قد انتفع بهذه الوصية، أما عموم نَفْعها فهذا أمر ظاهر، عموم نَفْعها فهذا أمر ظاهر فيما حصل من خير عظيم وانتشار واسع لهذه الأبيات الحسنة اللطيفة الجامعة.

وأبو إسحاق رحمه الله تُوفي في نحو الستين والأربعمائة للهجرة.

نعم.

قارئ المتن: الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ عبده ورسوله نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

قال الناظم أبو أسحاق الإلبيري رحمه الله تعالىٰ في منظومته في الحث علىٰ طلب العلم والتحلي بالأخلاق الفاضلة:

تَفُتُّ فُؤَادَكَ الأَيَّامُ فَتًّا ... وَتَنْحِتُ جِسْمَكَ السَّاعَاتُ نَحْتَا

وَتَدْعُوكَ المَنُونُ دُعَاءَ صِدْقٍ ... أَلاَ يَا صَاحِ: أَنْتَ أُرِيدُ أَنْتَا

أَرَاكَ تُحِبُّ عِرْسًا ذَاتَ خِدْرٍ ... أَبَتَّ طَلاَقَهَا الأَكْيَاسُ بَتَّا

تَنَامُ الدَّهْرَ وَيْحَكَ فِي غَطِيطٍ ... بِهَا حَتَّىٰ إِذَا مِتَّ انْتَبَهْتَا

فَكَمْ ذَا أَنْتَ مَخْدُوعٌ وَحَتَّىٰ ... مَتَىٰ لاَ تَرْعَوِي عَنْهَا وَحَتَّىٰ؟

بدأ رحمه الله تعالىٰ هذه المنظومة بتذكير المنصوح بأن مرور الأيام يترتب عليه ضعف الإنسان وضعف قواه إلىٰ أن يصل إلىٰ المرحلة التي تأتيه فيها منيته، ويغادر هذه الحياة، فالإنسان خُلِق من ضعف ثم من بعد هذا الضعف قوة، ثم من بعد القوة ضعفاً.

فهو بدأ منظومته بالحديث عن هذه المرحلة التي هي مرحلة الضعف، ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الروم]، فبدأ رحمه الله يتحدث عن هذه المرحلة..

تَفُتُّ فُؤَادَكَ الأَيَّامُ فَتًّا ... وَتَنْحِتُ جِسْمَكَ السَّاعَاتُ نَحْتَا

تَفُتُّ أيامك: فَتُّ الشيء تكسيره.

ونحت الشيء.. (وَتَنْحِتُ جِسْمَكَ) نحت الشيء: بَرْيُه.

فينبهه أن مرور الأيام وتوالي السنون والأعوام يترتب عليه ضعف الإنسان وضعف بنيته وضعف قواه، ثم يقول له: (وَتَدْعُوكَ المَنُونُ) والمنون: المراد بها هنا المنية، (وَتَدْعُوكَ المَنُونُ) أي: المنية.

وكأنه ينبهه أنك في هذه المرحلة لا تدري متىٰ تفجؤك المنية ومتىٰ يقدم عليك الأجل.

وَتَــدْعُوكَ الْمَنَــونُ دُعَـاءَ صِــدْقٍ　　أَلاَ يَــــا صَــــاحِ: ....

(صَاحِ): ترخيم صاحب، أي: يا صاحبي.

....　　............ أَنْـــتَ أُرِيـــدُ أَنْتَـــا

يعني يقول: وما يدري أن المنية قريبة منك، ودنت إليك، وتقول: أريدك أنت دون غيرك، هل أنت مستعد لها، هل أنت متنبّه، وهذا فيه المعنىٰ الذي جاء في الحديث «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»، قال ابن عمر: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء.

قال:

أَرَاكَ تُحِـــبُّ عِرْســـًا ذَاتَ خِـــدْرٍ　　أَبَـــتَّ طَلاَقَهَـــا الأَكْيَـــاسُ بَتَّـــا

يعني أراك منشغل بهذا الأمر.

(عِرْسًا): العرس: الزوجة.

(ذَاتَ خِدْرٍ): يعني البكر التي لا تزال في خِدْرها، ويُضرَب بها المثل في الحياء، والحُسن، والأدب.

فيقول: أراك مشغولاً بهذا الأمر، وقصد بالعِرس التي ذات خِدْر الذي شُغِل بها هذا الرجل الدنيا والافتتان بها، والانشغال بملهياتها.

قال: (أَبَتَّ طَلاَقَهَا الأَكْيَاسُ بَتًّا) أي: الأكياس من الناس، وهم الفطناء، والكيِّس: هو النبيه الفَطِن.

وفي الحديث- وفي سنده مقال- «الكَيِّس مَنْ دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز مَنْ أتبع نفسه هواها، وتمنىٰ علىٰ الله الأماني».

الكَيِّس: هو الفطن.

وفي الحديث- وهو في صحيح مسلم- «كل شيء بقدر حتىٰ العجز والكَيْس».

الكَيْس: هو الفطنة والنباهة.

فالأكياس هم: الفطناء، النبهاء، العقلاء، أولو النُّهىٰ.

فيقول: (أَبَتَّ طَلاَقَهَا الأَكْيَاسُ بَتَّا): أي طلَّقوها طلاقًا باتًّا.

والطلاق البات: هو الطلاق البائن الذي لا رجعة فيه.

لأنهم أدركوا أنها متاع الغرور وأنها فانية فلم تغرهم، لم تغرهم الحياة الدنيا، ولم يغتروا بها فطلقوها طلاقًا باتًّا؛ نظير هذا المعنىٰ ما يُروىٰ عن علي بن أبي طالب، وقد رواه أبو نعيم في «الحلية» في ترجمة علي بن أبي طالب أنه قال للدنيا:" إِلَيَّ تَغَرَّرَتْ، إِلَيَّ تَشَوَّفَتْ، هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ، غُرِّي غَيْرِي، قَدْ بَتَتُّكِ ثَلَاثًا، فَعُمْرُكِ قَصِيرٌ، وَمَجْلِسُكِ حَقِيرٌ، وَخَطَرُكِ يَسِيرٌ ....."[1] إلىٰ آخر ما يُروىٰ عنه.

الشاهد قوله: بِنْتُكِ ثلاثًا؛ هذا معنىٰ قول الناظم: (أَبَتَّ طَلاَقَهَا الأَكْيَاسُ بَتَّا) أي: طلَّقوها بالثلاث، بِنْتُك ثلاثًا أي: طلقوها بالثلاث، فلم تأخذ قلوبهم ولم تسلب ألبابهم، ولم تشغل نفوسهم، بل همتهم عالية ومقاصدهم سامية، فلم تغرَّهم هذه الحياة.

تَنَامُ الدَّهْرَ وَيْحَكَ فِي غَطِيطٍ بِهَا حَتَّىٰ إِذَا مِتَّ انْتَبَهْتَا

(تَنَامُ الدَّهْرَ وَيْحَكَ): المراد بالنوم أي: الاستمرار في الغفلة، ولهذا تُسمىٰ الاستقامة من بعد الغفلة يقظة، تُسمىٰ يقظة، وتُعدُّ في منازل السائرين، وذكر ابن القيم رحمه الله في «المدارج»: فالاستقامة والتوبة تُعَدُّ يقظةً وما قبلها يُعدُّ نومًا، فالغافل نائم.

فيقول: (تَنَامُ الدَّهْرَ وَيْحَكَ فِي غَطِيطٍ) و(ويحك) هذه كلمة زجر.

(بِهَا) أي بهذه الحياة الدنيا.

والغطيط هو: صوت النائم المستغرق في النوم، يقال له: غطيط، ويقال له: شخير، ويقال له: خرير، وله أسماء كثيرة كلها حكاية للصوت، ويقال له: نخير، له أسماء كثيرة لهذا الصوت.

---

(١) حلية الأولياء (١/ ٨٥)

فيقول: (فِي غَطِيطٍ بِهَا) أي: مستغرق في النوم حتىٰ سُمِع منك ذلك الصوت الدال علىٰ استغراقك في النوم، ويقصد بالنوم الاستمرار في الغفلة، والانكباب علىٰ هذه الحياة، والبقاء علىٰ هذه الرقدة، رقدة الغفلة.

تَنَامُ الدَّهْرَ وَيْحَكَ فِي غَطِيطٍ بِهَا حَتَّىٰ إِذَا مِتَّ انْتَبَهْتَا

(حَتَّىٰ إِذَا مِتَّ انْتَبَهْتَا) يعني إذا مت وغادرت هذه الحياة وودعتها، انتبهت أنك كنت مخطئًا، والانتباه إذ ذاك لا يفيد الإنسان، والندامة في ذلك الوقت لا تنفعه.

يقول: (حَتَّىٰ إِذَا مِتَّ انْتَبَهْتَا)؛ وهذا المعنىٰ رُوي في حديث، حديث رُفِع إلىٰ النبي عليه الصلاة والسلام؛ لكن كما نبّه العلماء أنه لا أصل له ولا يصح أن يُنسَب إلىٰ النبي عليه الصلاة والسلام: (الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا)؛ وهذا المعنىٰ هو الذي أشار إليه (حَتَّىٰ إِذَا مِتَّ انْتَبَهْتَا)؛ فالناس نيام حتىٰ إذا ماتوا انتبهوا، فهو مرفوعًا إلىٰ النبي عليه الصلاة والسلام لا أصل له، ولا يصح أن يُنسَب إلىٰ النبي عليه الصلاة والسلام، ويُعزَىٰ في بعض كتب التخريج لعليّ بن أبي طالب ﷺ ولم أره في شيء من الكتب المُسندَة، والأجزاء الأحاديثية لم أره في شيء منها.

وعندما يقول مثلي: لم أره في شيء منها، ليس هذا علىٰ طريقة الأئمة الأُوَل، فعندما يقول: (لم أره) فإنه يعني أنه استقرأ تلك الكتب واستظهرها وتتبعها فلم يره فيها.

فَكَمْ ذَا أَنْتَ مَخْدُوعٌ وَحَتَّىٰ مَتَىٰ لاَ تَرْعَوِي عَنْهَا وَحَتَّىٰ؟

لكن عندما أقول: (لم أره) أي: من خلال التتبع بالأجهزة الحديثة، الأجهزة الحديثة والوسائل الحديثة للفهرسة، ومعرفة مواضع الحديث.

ففرق بين مَنْ حاله هذه وحال أهل العلم الأُوَل واستظهارهم ومعرفتهم بالأحاديث ومظانها واستظهارهم لمواضعها وأمكنتها.

ووجدتُه في «الحلية» لأبي نعيم في ترجمة سفيان الثوري من قوله: (الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا)، وأيضًا يُذكَر منسوبًا لسهل التَّسْتُري وإلىٰ آخرين.

لكن من حيث المعنىٰ.. المعنىٰ واضح، (الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا)؛ الناس نيام: أي في غفلة، وإذا مات انتبه، لكن لا يفيد الانتباه بعد الممات.

ثم يقول له: (فَكَمْ ذَا أَنْتَ مَخْدُوعٌ): كم ذا أنت مخدوع: إلىٰ متىٰ تستمر، و(كم) يُؤتىٰ بها للتكثير، يعني كم هذا الخداع الذي تمادىٰ بك، استمر معك دون أن تفيق ودون أن تنتبه.

فَكَمْ ذَا أَنْتَ مَخْدُوعٌ وَحَتَّىٰ ... مَتَىٰ لاَ تَرْعَوِي عَنْهَا وَحَتَّىٰ؟

(لاَ تَرْعَوِي) أي: لا تكف، يعني حتىٰ متىٰ أنت مستمر في إكبابك عليها وانشغالك بها دون أن تكف عن ذلك وتستيقظ من هذه الغفلة والرقدة.

قال رحمه الله:

"أَبَا بَكْرٍ" دَعَوْتُكَ لَوْ أَجَبْتَا ... إِلَىٰ مَا فِيهِ حَظُّكَ لَوْ عَقِلْتَا

إِلَىٰ عِلْمٍ تَكُونُ بِهِ إِمَامًا ... مُطَاعًا إِنْ نَهَيْتَ وَإِنْ أَمَرْتَا

وَيَجْلُو مَا بِعَيْنِكَ مِنْ عَشَاهَا ... وَيَهْدِيكَ الطَّرِيقَ إِذَا ضَلَلْتَا

وَتَحْمِلُ مِنْهُ فِي نَادِيكَ تَاجًا ... وَيَكْسُوكَ الْجَمَالَ إِذَا عَرِيتَا

يَنَالُكَ نَفْعُهُ مَا دُمْتَ حَيًّا ... وَيَبْقَىٰ ذُخْرُهُ لَكَ إِنْ ذَهَبْتَا

هُوَ الْعَضْبُ الْمُهَنَّدُ لَيْسَ يَنْبُو ... تُصِيبُ بِهِ مَقَاتِلَ مَنْ أَرَدتا

وَكَنْزٌ لاَ تَخَافُ عَلَيْهِ لِصًّا ... خَفِيفُ الْحَمْلِ يُوجَدُ حَيْثُ كُنتَا

يَزِيدُ بِكَثْرَةِ الإِنْفَاقِ مِنْهُ ... وَيَنْقُصُ إِنْ بِهِ كَفًّا شَدَدْتَا

فَلَوْ قَدْ ذُقْتَ مِنْ حَلْوَاهُ طَعْمًا ... لآثَرْتَ التَّعَلُّمَ وَاجْتَهَدْتَا

وَلَمْ يَشْغَلْكَ عَنْهُ هَوىً مُطَاعُ ... وَلاَ دُنْيَا بِزُخْرُفِهَا فُتِنْتَا

وَلاَ أَلْهَاكَ عَنْهُ أَنِيقُ رَوْضٍ ... وَلا خِدْرٌ بزينتها كَلِفْتَا

فَقُوتُ الرُّوْحِ أَرْوَاحُ الْمَعَانِي ... وَلَيْسَ بِأَنْ طَعِمْتَ وَلاَ شَرِبْتَا

فَوَاظِبْهُ وَخُذْ بِالْجِدِّ فِيهِ ... فَإِنْ أَعْطَاكَهُ اللهُ انتَفَعْتَا

وَإِنْ أُوتِيتَ فِيهِ طَوِيلَ بَاعٍ وَقَالَ النَّاسُ: إِنَّكَ قَدْ عَلِمْتَا

فَلاَ تَأْمَنْ سُؤَالَ اللهِ عَنْهُ بِتَوْبِيخٍ: عَلِمْتَ؛ فَهَلْ عَمِلْتَا؟

فَرَأْسُ الْعِلْمِ تَقْوَىٰ اللهِ حَقًّا وَلَيْسَ بِأَنْ يُقَالَ: لَقَدْ رَأَسْتَا

ثم خاطبه بكنيته، وهذا أيضاً من التلطف في الخطاب لاسيما وقد عرفنا أن هذا الشخص المعني قد تكلم في أبي إسحاق، ونال منه وأخذ يعدد معائبه.. ونحو ذلك، فخاطبه بهذا الخطاب بكنيته وبهذا اللطف، وأيضاً الحث علىٰ الإقبال والسماع والإصغاء.

يقول له:

"أَبَا بَكْرٍ" دَعَوْتُكَ لَوْ أَجَبْتَا إِلَىٰ مَا فِيهِ حَظُّكَ لَوْ عَقَلْتَا

(دَعَوْتُكَ): أي دعوة ناصح، ومشفق لأمر عظيم وخير عميم لو عقلته- يعني لو فهمته- وأجبتني إلىٰ ما دعوتك إليه لنلت خيراً عظيماً وحظاً وافراً.

..... دَعَوْتُكَ لَوْ أَجَبْتَا إِلَىٰ مَا فِيهِ حَظُّكَ لَوْ عَقَلْتَا

يعني دعوتك إلىٰ أمر فيه خير لك ونفع عظيم لو أجبتني إلىٰ ذلك نلت حظاً عظيماً وخيراً وافراً؛ ما هو هذا الذي دعاه إليه؟

بيّنه في البيت الذي يليه، ثم أخذ يُعدد فضائله.

قال: (إِلَىٰ عِلْمٍ) أي: الذي ندعوك إليه العلم، والمراد بالعلم: الشرعي، العلم بالكتاب والسُّنة.

(إِلَىٰ عِلْمٍ تَكُونُ بِهِ إِمَاماً): ومعنىٰ (إِمَاماً) أي قدوة للناس، ومن دعوات عباد الرحمن: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ٧٤﴾ [الفرقان].

ومن الأسس التي تُنال بها الإمامة: العلم، الأسس التي تنال بها الإمامة: العلم، قال الله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ٢٤﴾ [السجدة]؛ فقوله: ﴿بِأَمۡرِنَا﴾ [السجدة:٢٤]؛ هذا فيه تنبه علىٰ أن من الأسس التي تُبنىٰ عليها الإمامة وتُنال بها: العلم والفقه في دين الله تبارك وتعالىٰ والبصيرة بشرع الله.

إِلَـــىٰ عِلْـــمٍ تَكُـــونُ بِـــهِ إِمَامـــًا مُطَاعـــًا إِنْ نَهَيْـــتَ وَإِنَ أَمَرْتَـــا

أي: نهْيُك وأمرك يكون مسموعًا عند الناس ومقبولاً لما علموه منك من دراية وفهْم وبصيرة بدين الله تبارك وتعالىٰ.

أيضًا من فوائده قال: (وَيَجْلُو مَا بِعَيْنِكَ مِنْ غِشَاهَا) وفي نسخة عَشاها.

(وَيَجْلُو مَا بِعَيْنِكَ مِنْ غِشَاهَا) أي: ما عليها من غشاء وغطاء أصبحت لا تُبصر؛ وهذا فيه تنبيه علىٰ أن الإنسان لا يكون مُبصراً حقيقةً إلا بالعلم، فهو بدون العلم أعمىٰ لا يبصر.

ولهذا قالوا: مَثَل العالم في الناس مَثَل أناسٍ في صحراء مظلمة فأخذ مصباحًا ومضىٰ أمامهم يضيء لهم الطريق، ويُجَنِّبهم الحفر والمهالك ونحو ذلك.

.....

والعلم نور وحَمَلَتُه حملة النور، ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا﴾ [الشورىٰ:٥٢] هكذا وصف الله الوحي.

قال: (يَجْلُو مَا بِعَيْنِكَ مِنْ غِشَاهَا) يعني يزيل، (يَجْلُو)أي يزيل- (مَا بِعَيْنِكَ مِنْ غِشَاهَا) أي ما عليها من غطاها، فالجاهل لا يبصر الطريق، لا يبصر الطريق إلا بالعلم.

(وَيَهْدِيكَ الطَّرِيقَ إِذَا ضَلَلْتَا) إذا ضللت فإن العلم يهديك إلىٰ الطريق، ويدلك علىٰ الجادة إلىٰ صراط الله المستقيم.

وَتَحْمِـلُ مِنْـهُ فِـي نَادِيـكَ تَاجـًا وَيَكْسُـــوكَ الْجَمَـــالَ إِذَا عَرَيْتَـــا

من فوائده أنك تحمل في ناديك- يعني في مجالسك- تاجًا، وأيضًا (وَيَكْسُوكَ الْجَمَالَ إِذَا عَرَيْتَا) وهذا تنبيه منه إلىٰ الأمور التي تُنال لكنها ليست هي غرض العالم ولا قصده، لكن أشياء تحصل وتتحقق، لكنها العالم الصادق المخلص ليست همته ولا غرضه، ليس غرضه الترؤس ولا غرضه الشهرة، ولا غرضه أن يُعَظَّم في المجالس أو نحو ذلك.. هذه كلها ما قامت في قلبه إن كان مخلصًا.

(يَنَالُكَ) وهذه من فوائد- أيضـًا- العلم.

يَنَالُـكَ نَفْعُـهُ مَـا دُمْـتَ حَيـًا وَيَبْقَـىٰ ذِكْـرُهُ لَـكَ إِنْ ذَهَبْتَـا

وفي بعض النسخ (ذُخْرُه).

(يَنَالُكَ نَفْعُهُ مَا دُمْتَ حَيًا) أي: تنتفع بهذا العلم ما دمت حيـًا، وأيضـًا ينتفع به مَنْ شاء الله من عباده ممَنْ يستفيدون منك ويتلقوْن علىٰ يديك تنتفع به ما دمتَ حيـًا.

(وَيَبْقَىٰ ذِكْرُهُ- أو ذُخْره- لَكَ إِنْ ذَهَبْتَا) يعني بعد موتك يبقىٰ ذِكْرك بلسان الخير والذِّكر الجميل في الناس إذا (ذَهَبْتَا) أي: إذا مت وغادرت هذه الحياة.

وانظر سِيَر العلماء كيف أنها باقية، وأخبارهم ومآثرهم كيف أنها متجددة، وبعضهم مات من مئات السنين ولا يمر علىٰ الناس يوم إلا وذكروه بالجميل والثناء والترحم، خذ علىٰ سبيل المثال الإمام ابن تيمية رحمه الله، ومكانته في قلوب الناس وإفادتهم من علومهم وثناؤهم عليه، وذِكْرهم له بالجميل، وغيره من أهل العلم قبله وبعده رحم الله الجميع.

ثم ذكر أيضـًا من فوائد العلم قال: (هُوَ الْعَضْبُ المُهَنَّدُ لَيْسَ يَنْبُو) أي: السيف الماضي البتَّار الذي لا ينبو، هو (هُوَ الْعَضْبُ المُهَنَّدُ لَيْسَ يَنْبُو).

ونبا السيف: أي مال عن الضريبة، أو الموضع المقصود بالضرب، فلا ينبو: أي لا يخطئ ولا يميل؛ أي أنه سيف بتَّار.

هُـوَ الْعَضْـبُ الْمُهَنَّـدُ لَـيْسَ يَنْبُـو تُصِـيبُ بِـهِ مَقَاتِـلَ مَـنْ أَرَدتـا

وهذا فيه أن حامل العلم والراسخ فيه إذا رد علىٰ أهل الباطل باطلهم أصابهم في مقتل ولا تقوم لهم قائمة بإذن الله، وكم من أنواع من الأباطيل والضلالات أبطلها الله ﷻ بأن هيأ جل وعلا علماء راسخين ردوا ذلك الباطل وذبّوا عن حمىٰ الشرع فكان الأمر كما وصف رحمه الله: (تُصِيبُ بِهِ مَقَاتِلَ مَنْ أَرَدتا).

(مَنْ أَرَدتا): أي من أهل الضلال والباطل والشبهات والإفساد.

ثم قال رحمه الله في بيان- أيضـًا- فضائل العلم:

وَكَنْــزٌ لاَ تَخَــافُ عَلَيْــهِ لِصّــا خَفِيفُ الْحَمْـلِ يُوجَـدُ حَيْـثُ كُنتَـا

ومراده بالعلم هنا أي الذي في الصدر، لا الذي في القِمَطْر أو في الكتاب أو في الأجهزة، فمراده به: أي العلم الذي في صدر الإنسان هو عبارة عن كنز لا تخاف عليه لصًا، لا تخاف عليه، عادةً الكنز ينشغل صاحبه دائمًا بالخوف عليه من السرقة، وكل ما ذهب إلىٰ مكان وهو يهتم ويحتاط لهذا الكنز ألا يُسرَق إلا العلم، كنز متنقل معك أينما ذهبت ولا تخشىٰ عليه لصًا، ما تخاف عليه من السُّرَّاق.

(خَفِيفُ الْحَمْلِ يُوجَدُ حَيْثُ كُنتَا): محمله خفيف لا يكلفك، بخلاف الكنوز الأخرىٰ وخاصةً إذا كانت كثيرة تحتاج إلىٰ مشقة في حملها أو تحتاج إلىٰ مَنْ يساعدوك علىٰ حملها، أما العلم مهما كثُر عند صاحبه فإنه يُعَدُّ خفيف الحمل وليس ثقيلاً علىٰ صاحبه.

يَزِيــدُ بِكَثْــرَةِ الإِنْفَــاقِ مِنْــهُ وَيَــنْقُصُ إِنْ بِــهِ كَفّــا شَــدَدْتَا

من فوائد العلم: أنك كلما أنفقت منه زاد لأن الله يبارك بعلم العالم الذي يحرص علىٰ نفع الناس به وإيصاله للآخر، فيبارك له الله ﷻ ويفتح له من أبواب المعرفة والحِكمة والفهم والاستنباط ما لا يحتسب وما لا يدور له في بال.

وأيضًا (وَيَنْقُصُ إِنْ بِهِ كَفّا شَدَدْتَا) أي: إذا لم تعتنِ بتعليمه وإيصاله للآخرين ينقص.

ولهذا يوجد أناس عكفوا علىٰ العلم فترة ما من حياتهم وحصَّلوا فيه تحصيلاً كبيراً جداً، ولم يحرصوا علىٰ نفع الناس وإيصال العلم إلىٰ الآخرين فنقصت علومهم، نقصت علومهم وضعُف تحصيلهم ودرايتهم بالعلم.

فَلَـوْ قَـدْ ذُقْـتَ مِـنْ حَلْـوَاهُ طَعْمـا لآثَــرْتَ الــتَّعَلُّمَ وَاجْتَهَــدْتَا

وهذا أيضًا حثٌّ لطيف لهذا الشخص أن يدخل وأن يخطو في التحصيل والطلب حتىٰ يذوق الحلاوة، ويقول له: إنك إن حصَّلت هذه الحلاوة وذُقت طعم العلم لن تتوقف عن السير الحثيث في نيله وتحصيله.

وَلَـمْ يَشْـغَلْكَ عَنْـهُ هَـوىً مُطَـاعٌ وَلاَ دُنْيَــا بِزُخْرُفِهَــا فُتِنْتَــا

إذا ذقت حلاوة العلم وطعمه فإن الأهواء المطاعة لن تشغلك والدنيا بزخرفها لن تشغل.

وَلاَ أَلْهَـــاكَ عَنْـــهُ أَنِيـــقُ رَوْضٍ ولا خِـــــدرٌ بزينتهـــــا كَلِفْتـــــا

(وَلاَ أَلْهَاكَ عَنْهُ أَنِيقُ رَوْضٍ) أنيق الروض أي: جماله وحُسنه.

وأنيق الروض قد يشغل الإنسان.

وأهل العلم العلمُ يعدّونه روضاً مُرْبِعاً ورياضاً للناظرين؛ ولهذا ترىٰ جماعة كبيرة من أهل العلم سمَّوا مُصنفاتهم بما يدل علىٰ ما قام في قلوبهم من هذا الإحساس وهذا الشعور، فهو يحس أن العلم روضة وبستاناً.

انظر مثلاً «رياض الصالحين»، «الروض المربع»، «الروض الأُنُف»، «بستان العارفين»، «الرياض الناظرة»، كتب كثيرة لأهل العلم سموها بما يُشعر بهذا الإحساس الذي قام في قلوبهم تجاه العلم، وأنه مثل الروضة والحديقة الغنَّاء بكامل أنواع الأشجار الجميلة والزهور الطيبة والروائح الحسنة، وهذا كله إنما يكون للإنسان إذا ذاق حلاوة العلم ولو كان ذلك في صباه، الصغير إن ذاق حلاوة العلم يُفضله علىٰ النزهة وعلىٰ المتع التي أقرانه يحفلون بها ويهتمون بها.

ومما أذكر في هذا المقام قصة طريفة لطيفة قرأتها في ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، قبل البلوغ أراد أهله أن يذهبوا إلىٰ نزهة، أسرته أرادوا أن يذهبوا إلىٰ نُزهة وكانوا في دمشق، وهناك الأماكن من أحسن ما يكون جمالاً وحُسناً من أشجار وأنهار وغير ذلك، فأرادوا أن يذهبوا نزهة وقال: أنا أُفَضِّل أن أبقىٰ في البيت- قبل أن يبلغ-، قال: أنا أريد أن أبقىٰ في البيت، واعتذر وبقي في البيت.

لما انتهت النزهة ورجعوا، إخوانه- وهذا معروف في البيوت- يغايرونه، رأينا كذا وشوفنا كذا وأنت ما رأيت، فلما رجعوا إلىٰ البيت أخذوا يغايرونه، يذكرون له الأشياء التي رأوها في النزهة.

قال: قد ذهبتم وما جئتم بشيء، وأما أنا ففي غيابكم حفظت الكتاب الفلاني، كتاب في النحو استغلها فرصة، هدوء البيت وسكون البيت وعكف عليه وحَفِظَه.

فقال: ذهبتم وما جئتم بشيء، وأنا في غيبتكم حفظت الكتاب الفلاني كتاباً في النحو؛ كان ذلكم قبل بلوغه؛ فالذي يذوق العلم وحلاوته فِعْلاً لا يُقَدِّم علىٰ هذه الحلاوة أي شيء آخر، ولا يعني ذلك أن طالب العلم يحرم نفسه ولا يتَنَزَّه، لا يعني ذلك، لكن المقصود: أنها لا تشغله، وليست هي أكبر همّه، ولا مبلغ علمه، ولا أيضاً مسيطرة علىٰ اهتمامه وفِكْره.

وَلاَ أَلْهَـــاكَ عَنْـــهُ أَنِيـــقُ رَوْضٍ ولا خِـــــدرٌ بزينتهـــــا كَلِفْتـــــا

(خِدْر): أي ذوات الخدور، أي: لم يشغلك عنه ذات خِدْر بزينتها وجمالها.

(كَلِفْتَ): أي شُغِلت ولهيت وانشغلت.

(ولا خِدرٌ بزينتها كَلِفْتا)..

أيضاً أؤكد علىٰ المعنىٰ السابق، لا يعني ذلك أن طالب العلم يُعرِض تماماً؛ بل يأخذ حظَّه ونصيبه من ذلك لكن هذه الأشياء لا تشغله عن المقصد الأعظم والغاية الكبرىٰ، ولهذا في الدعاء: «لا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا»، وهذه الدعوة تفيد أن الإنسان يهتم بالدنيا ويتعلم أيضاً من أمورها لكن ليست الدنيا أكبر همّه ولا مبلغ عِلمه.

(فَقُوتُ الرُّوْحِ أَرْوَاحُ الْمَعَانِي): القوت الحقيقي للروح، للنفس.. الذي لا تشبع النفس إلا به، ولا تهنأ إلا بتحصيله أرواح المعاني، أي المعالي العظيمة والمعارف السديدة والعلوم النافعة.

(وَلَيْسَ بِأَنْ طَعِمْتَ وَلاَ شَرِبْتَا) ليس قوت الروح الطعام والشراب- هذا قوت البدن-، أما الروح قوته العلم النافع الذي تزكو به النفوس وتطيب به القلوب.

(فَوَاظِبْهُ وَخُذْ بِالْجِدِّ فِيهِ)؛

(وَاظِبْهُ): أي واظب عليه، واحرص علىٰ العناية به.

(وَخُذْ بِالْجِدِّ فِيهِ): فالجد بالجد والحرمان بالكسل.

.....وَخُـــذْ بِالْجِـــدِّ فِيـــهِ فَـــــإِنْ أَعْطَاكَـــــهُ اللهُ انتَفَعْتَـــــا

(فَإِنْ أَعْطَاكَهُ اللهُ انتَفَعْتَا) إن مَنَّ الله عليك بالعلم وأكرمك بذلك انتفعت-أي: حصَّلْت نفعاً عظيماً-.

وقوله: (أَعْطَاكَهُ) فيه تنبيه إلىٰ أن العلم مِنَّة إلهية، وفضْل ربّاني يتفضل به علىٰ مَنْ يشاء..

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه]

﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ﴾ [النساء:١١٣].

فهو مِنّة وفضل من الله.

.....

والمصنف نبَّه في هذا البيت علىٰ تنبيه غاية في النفع ألا وهو أن العلم يحتاج من العبد إلىٰ أمرين؛

الأول: الجد والاجتهاد فيه وبذل الأسباب.

والأمر الثاني: الاستعانة بالله.

وقد قال عليه الصلاة والسلام في الجمع بينهما: «احرص علىٰ ما ينفعك واستعن بالله»؛

أما الحرص علىٰ ما ينفع فمأخوذ من قوله: (وَخُذْ بِالْجِدِّ فِيهِ)، وقوله: (وَاظِبْهُ).

وأما الاستعانة ففي قوله: (إِنْ أَعْطَاكَهُ اللهُ).

فهو عطية إلهية ومِنَّة ربانية.

قال: (وَإِنْ أُعطِيت فِيهِ طَولَ بَاعٍ) وفي بعض النُّسَخ (إِنْ أُوتِيتَ فِيهِ طَوِيلَ بَاعٍ).

(وَإِنْ أُعطِيت فِيهِ طَولَ بَاعٍ) أي: حصَّلت في العلم تحصيل واسع، ونِلت منه نصيباً كبيراً.

(وَقَالَ النَّاسُ : إِنَّكَ قَدْ عَلِمْتَا) أي: اشتُهرت بين الناس بأنك قد علمت وحصَّلت.

فَـــلاَ تَـــأْمَنْ سُـــؤَالَ اللهِ عَنْـــهُ بِتَـــوْبِيخٍ: عَلِمْـــتَ؛ فَهَـــلْ عَمِلْتَـــا؟

أي: إياك أن يغرُّك ذلك؛ لو أنك حصَّلت نصيب من العلم نصيباً وافراً، واشتُهرت بين الناس العالم الفلاني، وفلان يحفظ كذا وحَصَّل كذا.. إلىٰ آخره، كل هذه الأشياء لا تغرَّك، لا تغتر بذلك.

فَـــلاَ تَـــأْمَنْ سُـــؤَالَ اللهِ عَنْـــهُ بِتَـــوْبِيخٍ: عَلِمْـــتَ؛ فَهَـــلْ عَمِلْتَـــا؟

وفي الحديث: «لا تزول قدم عبد يوم القيامة حتىٰ يُسأَل عن أربع» ومنها: عن «علمه، ماذا عمل به؟».

ثم قال: (فَرَأْسُ الْعِلْمِ تَقْوَىٰ اللهِ حَقّـًا)؛ رأس العلم: خشية الله، كما قال الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨]؛ (فَرَأْسُ الْعِلْمِ تَقْوَىٰ اللهِ حَقّـًا) هذا هو رأس العلم أن تكون فعلاً تتقي الله وتخاف الله، وتراقب الله، وتخشىٰ الله ﷻ؛ هذا رأس العلم.

العلم الخشية؛ يقول أهل العلم: «العلم الخشية» خشية الله.

فَـــرَأْسُ الْعِلْـــمِ تَقْـــوَىٰ اللهِ حَقّـًـــا وَلَـــيْسَ بِـــأَنْ يُقَـــالَ: لَقَـــدْ رَأَسْـــتَا

وفي بعض النُّسخ (رَأَسْتَا).

ليس العلم (بِأَنْ يُقَالَ: لَقَدْ رَأَسْتَا) يعني ليس العلم أن يشار إليك بالبنان، ويقال: فلان هو الْمُبَرِّز وهو الكذا، ليس هذا هو العلم، العلم خشية الله، العلم مخافة الله، مَنْ كان بالله أعرف كان منه أخوف ولعبادته أطلب وعن معصيته أبعد.

ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كلاماً معناه: كل علم لا يزيد صاحبه إيماناً فهو علم مدخول- أي داخله شيء-، فالعلم النافع هو الذي يُثمر الخشية والخوف، ويُثمر العمل الصالح، ويُثمر تَجَنُّب المعاصي، وتَجَنُّب ما يُسخط الله ﷻ.

فَـــرَأْسُ الْعِلْـــمِ تَقْـــوَىٰ اللهِ حَقّـًـــا وَلَـــيْسَ بِـــأَنْ يُقَـــالَ: لَقَـــدْ رَأَسْـــتَا

قال رحمه الله:

وَأَفْضَــلُ ثَوْبِــكَ الإِحْسَــانُ لَكِــنْ نَــرَىٰ ثَــوْبَ الإِسَــاءَةِ قَــدْ لَبِسْــتَا
إِذَا لَـــمْ يُفِـــدْكَ الْعِلْـــمُ خَيْـــراً فَخَيْــرٌ مِنْــهُ أَنْ لَــوْ قَــدْ جَهِلْتَــا
وَإِنْ أَلْقَــاكَ فَهْمُــكَ فِــي مَهَــاوٍ فَلَيْتَــكَ ثُــمَّ لَيْتَــكَ مَــا فَهِمْتَــا
سَــتَجْنِي مِــنْ ثِمَــارِ الْعَجْــزِ جَهْــلاً وَتَصْــغُرُ فِــي الْعُيُــونِ إِذَا كَبِرْتَــا
وَتُفْقَــدُ إِنْ جَهِلْــتَ وَأَنْــتَ بَــاقٍ وَتُوجَــدُ إِنْ عَلِمْــتَ وَقَــدْ فُقِــدْتَا
وَتَــذْكُرُ قَــوْلَتِي لَــكَ بَعْــدَ حِــينٍ إِذَا حقّــاً بِهَــا يَوْمــاً عَمِلْتَــا
وَإِنْ أَهْمَلْتَهَــا وَنَبَــذْتَ نُصْــحاً وَمِلــتَ إِلَــىٰ حُطَــامٍ قَــدْ جَمَعْتَــا
لَسَــوْفَ تَعَــضُّ مِــنْ نَــدَمٍ عَلَيْهَــا وَمَــا تُغْنِــي النَّدَامَــةُ إِنْ نَــدِمْتَا
إِذَا أَبْصَــرْتَ صَــحْبَكَ فِــي سَــمَاءٍ قَــدِ ارْتَفَعُــوا عَلَيْــكَ وَقَــدْ سَــفُلْتَا
فَرَاجِعْهَــا وَدَعْ عَنْــكَ الْهُــوَيْنَىٰ فَمَــا بِــالْبُطْءِ تُــدْرِكُ مَــا طَلَبْتَــا

نعم.. قبل أن أواصل أذكر لكم خاطرة جالت في نفسي الآن؛

سبحان الله! هذه النصائح، وهذا البَسْط في تنويع النُّصْح، وأيضاً تلمس في نصحه حرص علىٰ جذْب المنصوح وتقريبه للخير، وتفتيح أبواب ومعاني الخير له، هذا السخاء في البيان والبسط يكتبه لشخص نال منه في أبيات، وتكلّم فيه ووقع فيه، وآخذ يعدد معائبه، فمَنْ الذي ينهض لمثل هذا؟ ومَنْ الذي يبلغ مثل هذا المبلغ؟

شخص عرفته من الصِّبا، وترافقت أنت وإياه، ثم فوجئت يوم وإذا به يكتب أوراقاً في ذمِّك، أو شعراً في القدح فيك، وتعديد معائبك وأن فلان فيه كذا وفيه كذا وفيه كذا وفيه كذا، شخص عُومِلت منه بهذه المعاملة هل تستطيع أن تبسط له النصح هذا البسط وبهذا السخاء، وبهذا التنويع والترفُّق والتلطف والتودد؟ هل تستطيع ذلك؟

تأمل!فهو أمر لا يصل.. ولا يبلغه كل أحد، وإنما يبلغه ويصل إليه أهل النفوس الكبار، أهل النفوس الكبار، أما مَنْ كانت نفسه صغيرة لا يمكن أن تبلغ ذلك، النفس الصغيرة تفكيراتها دون ذلك بكثير، لكن النفوس الكبار نظرها آخر.

.....

فتأمل هذا جيداً ينفعك الله ﷻ به في تعاملك؛ لأنه لا بد أن تُفاجَأ، لا بد أن تُفاجَأ بمواقف.. بأمور، فاحرص علىٰ أن تكون نفسك نفساً كبيرة، وكُنْ ناصحاً، وتعلَّم من مثل هذه المآثر العظيمة والأخلاق الرفيعة كيف تكون ناصحاً وكيف تعامل الآخرين.

من الناس مَنْ لو نيل منه بكلمة واحدة ولو بأمر هو فيه فعلاً- لكن تُكُلِّم فيه- ربما نال من الآخر بمئات الكلمات مما ليس فيه كذِباً، وطعناً، وافتراءً، وتضخيماً لبعض الأمور، وشتماً، ووقيعةً، وغيبةً، ونميمةً، وعَدِّدْ من ذلك ما لا حدَّ له.

ولهذا عندما نقرأ مثل هذه الأخلاق، ومثل هذه الآداب الرفيعة العالية حقيقةً ينبغي أن نستفيد، هذه تربية، هذا تعليم، هذه مآثر تراها بين يديك، وأخلاق رفيعة جداً تراها ماثلة أمامك، فعندما تقرأ مثل هذه المعاني ومثل هذه المآثر لا شك أنها-خاصةً إذا حرِصْت علىٰ أن يكون لك نصيب من ذلك مع المجاهدة تنل ذلك أو أكثر والفضل بيد الله ﷻ يؤتيه مَنْ يشاء-.

وهنا يحضرني قول القائل:

كَرِّرْ عليّ حديثهم يا حادي فحديثهم يجلو الفؤاد الصادي

فعلاً عندما تقرأ هذه المآثر تجلو عن نفسك معاني ليست جيدة، وتحاول مجاهداً نفسك أن تتحلىٰ بمثل هذه المعالي العالية الرفيعة.

اللهم اهدنا أجمعين لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عنّا سيِّئها، لا يصرف عنَّا سيِّئها إلا أنت.

وَأَفْضَــلُ ثَوْبِــكَ الإِحْسَــانُ لَكِــنْ تَــرَىٰ ثَــوْبَ الإِسَــاءَةِ قَــدْ لَبِسْــتَا

يقول رحمه الله: (وَأَفْضَلُ ثَوْبِكَ الإِحْسَانُ) أي: أفضل ثوب تلبسه وتكتسي به هو الإحسان، فهو أجمل ثوب وأحسن حِلْية، والله يقول: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الأعراف:٢٦].

وفي الدعاء المأثور عن النبي عليه الصلاة والسلام: «اللهم زيِّنَّا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين».

وَأَفْضَــلُ ثَوْبِــكَ الإِحْسَــانُ لَكِــنْ تَــرَىٰ ثَــوْبَ الإِسَــاءَةِ قَــدْ لَبِسْــتَا

انتبه لنفسك! أفضل ثوب تلبسه هو ثوب الإحسان، فلماذا تجني علىٰ نفسك هذه الجناية وتترك هذا الثوب الجميل الحسن وتلبس ثوب الإساءة؟! مالك وللإساءة، ومالك ولثياب الإساءة؟!

دعك عنها والبس ثوب الإحسان فإنه أجمل لباس وأحسن لباس.

ثم يقول له: (إِذَا ما لم يُفِدْكَ الْعِلْمُ خَيْراً): (ما) زائدة لكن وُضعت هنا للنظم.

(إِذَا ما لم يُفِدْكَ الْعِلْمُ خَيْراً) (إِذَا لم يُفِدْكَ الْعِلْمُ خَيْراً) يعني تعلَّمت وتفقهت وحصَّلت علماً لكن لم يفدك خيراً أي لم تنتفع بعلمك.

(فَخَيْرٌ مِنْهُ أَنْ لَوْ قَدْ جَهِلْتَا) لأن مقصود العلم العمل، والعلم وسيلة للعمل والتقرب إلىٰ الله ﷻ بما يرضيه ﷻ.

والناظم هنا لا يحث علىٰ البقاء علىٰ الجهل، وإنما يُحذِّر من التفريط بالعمل بالعلم، ويُحذِّر من نوعين من الخطر؛

النوع الأول: أن يبقىٰ الإنسان جاهلاً لا يتعلم؛ وهذا خطر علىٰ الإنسان.

والنوع الثاني: أن يتعلم ولا يعمل؛ وهذا أيضاً خطر علىٰ الإنسان.

والنجاة والسلامة تكون بالعلم والعمل، الهدىٰ ودين الحق؛ العلم النافع والعمل الصالح.

وَإِنْ أَلْقَــاكَ فَهْمُــكَ فِــي مَهَــاوٍ فَلَيْتَــكَ ثُــمَّ لَيْتَــكَ مَــا فَهِمْتَــا

أي: لو أنك اشتغلت في العلم وحصَّلت منه شيئًا من النصيب ثم دخلت بفهمك مدخلاً مُعوجّـًا، وأخذت تفهم النصوص- نصوص الكتاب والسُّنة- فهومًا خاطئة، فمَنْ كان هذه حاله فكما قال: (فَلَيْتَكَ ثُمَّ لَيْتَكَ مَا فَهِمْتَا) لأن هذا الفهم تجني به علىٰ نفسك وتجني به علىٰ غيرك.

عندما يفهم الإنسان آية فهمًا خاطئًا أو يَحْرِفُها عن معناها، أو حديثًا يسيء في فهمه ثم ينشر هذا الفهم الخاطئ بين الناس، كم يكون قد جنىٰ علىٰ نفسه وجنىٰ علىٰ الآخرين؟

وأوضح مثال في ذلك- بل أشدُّه خطورة- حال علماء الكلام الذين اشتغلوا في الآيات التي هي أعظم الآيات- آيات القرآن- شأنًا وأعلاها مكانةً آيات الصفات، اشتغلوا فيها تحريفًا لها عن معانيها، وتأويلاً لها عن دلالاتها، وقل مثل ذلك في أحاديث الصفات.

ثم قال:

سَــتَجْنِي مِــنْ ثِمَــارِ الْعَجْــزِ جَهْــلاً وَتَصْــغُرُ فِــي الْعُيُــونِ إِذَا كَبُرْتَــا

إذا مضىٰ الإنسان في هذه الحياة بالعجز، والكسل، والفتور، والتواني، الثمرة التي سيحصلها: الجهل، الثمرة التي يحصلها الجهل،

سَــتَجْنِي مِــنْ ثِمَــارِ الْعَجْــزِ جَهْــلاً وَتَصْــغُرُ فِــي الْعُيُــونِ إِذَا كَبِرْتَــا

إذا كبُر سِنّك ولا نصيب لك من العلم ولا حظ تصغر في العيون، يعني لا تكون لك تلك المكانة، وربما يقال هنا- الكلمة التي تُنقَل ولا أدري عن صحتها- عن أبي حنيفة: آن لأبي حنيفة أن يمدُّ رجليه.

قال:

وَتُفْقَــدُ إِنْ جَهِلْــتَ وَأَنْــتَ بَــاقٍ وَتُوجَــدُ إِنْ عَلِمْــتَ وَلَــو فُقِــدْتَا

يعني أن الإنسان الجاهل في حُكم المفقود، يعني وجوده وعدمه سواء، لا أثر له ولا يُنتفَع منه.

قال: (وَتُوجَدُ إِنْ عَلِمْتَ وَلو فُقِدْتَا)، انظر علماء لا يكونوا في المجالس حاضرين الأحياء منهم والأموات، لا يكونوا بأشخاص حاضرين، بعضهم قد مات وبعضهم حي، لكنهم في كثير من المجالس لهم حضور!، كيف؟

إذا تحدَّث الناس في مسألة ما قال: قال الشيخ ابن باز، قال الشيخ ابن عثيمين، قال الشيخ ابن تيمية، هذا حضور، ووجود (وَتُوجَدُ إِنْ عَلِمْتَ ولو فُقِدْتَا) فُقِدتَ بأن لم تكن حاضراً ذلك المجلس أو فُقدت بأن كنت ميتًا فلك حضور في المساجد، والناس لا يزالون يستفيدون من علومك.

وَتَذْكُرُ قَوْلَتِي لَكَ بَعْدَ حِينٍ إِذَا حقّاً بِهَا يَوْماً عَمِلْتَا

وهذا يحثه ويقول له: انتبه، وإن عملت بما أقول لك سترىٰ فائدة عظيمة جداً، وتذكر قولي لك بعد حين (إِذَا حقّاً بِهَا يَوْماً عَمِلْتَا).

هذا الكلام منه رحمه الله يشبهه يعني كلام بعض الدعاة إذا حثَّ إنسان علىٰ عمل ما، وقال له: واظب عليه، ستنتفع به، وإن واظبت عليه ستذكر كلامي بعد سنوات، يقول له ذلك أيضًا حثًّا له علىٰ الاهتمام بهذا الأمر وأنه فعلاً سيرىٰ ثمرة عظيمة جداً؛ هذا إن عمل.

لكن إن لم يعمل ماذا سيكون؟

قال:

وَإِنْ أَهْمَلْتَهَا وَنَبَذْتَ نُصْحاً وَمِلتَ إِلَىٰ حُطَامٍ قَدْ جَمَعْتَا

لَسَوْفَ تَعَضُّ مِنْ نَدَمٍ عَلَيْهَا وَمَا تُغْنِي النَّدَامَةُ إِنْ نَدِمْتَا

أي: إن أهملت هذه الوصايا وضيّعت هذه النصائح وملت إلىٰ حطام الدنيا وانشغلت بها جمعًا لها وإكبابًا عليها فسوف تندم، قال: (لَسَوْفَ) وفي بعض النسخ (فسوف) (تَعَضُّ مِنْ نَدَمٍ عَلَيْهَا)، يقال: عضَّ أصابع الندم يعني عندما يتحسر علىٰ تفريطه في أمر ما.

(وَمَا تُغْنِي النَّدَامَةُ إِنْ نَدِمْتَا)، الندامة لا تفيد إذا ندم الإنسان علىٰ شيء فات أوانه لا يفيده الندم.

يؤكد له هذا المعنىٰ.. أن الندامة لاتفيده..

يقول:

إِذَا أَبْصَـرْتَ صَـحْبَكَ فِـي سَـمَاءٍ قَـدِ ارْتَفَعُـوا عَلَيْـكَ وَقَـدْ سَـفُلْتَا

يعني عندما ترىٰ أصحابك وأقرانك وزملائك أصبحوا في علو وفي سماء وفي رفعة بما نالوه من علوم وحصّلوه من خير وندمت فإن الندامة لا تفيدك شيئًا.

إِذَا أَبْصَـرْتَ صَـحْبَكَ فِـي سَـمَاءٍ قَـدِ ارْتَفَعُـوا عَلَيْـكَ وَقَـدْ سَـفُلْتَا

فَرَاجِعْهَـا وَدَعْ عَنْـكَ الْهُـوَيْنَىٰ فَمَـا بِـالْبُطْءِ تُـدْرِكُ مَـا طَلَبْتَـا

راجع نفسك.. وهذه دعوة من الناظم للمنصوح أن يحاسب نفسه، وأن يزن أعماله.

(فَرَاجِعْهَا وَدَعْ عَنْكَ الْهُوَيْنَىٰ) يعني دع التراخي والفتور، والتواني والكسل.

(فَمَا بِالْبُطْءِ تُدْرِكُ مَا طَلَبْتَا)؛ لأن المقام هنا مقام مسارعة ومسابقة، يسارعون في الخيرات، هذا مقام مسابقة، فالبطء فيه ما فيه فائدة ولا يدرك به مطلوبًا (فَمَا بِالْبُطْءِ تُدْرِكُ مَا طَلَبْتَا).

ثم مضىٰ رحمه الله تعالىٰ في نصحه ووصاياه العظيمة ونكتفي يومنا هذا بهذا القدر.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، اللهم صلِّ وسلم علىٰ عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.